الأبعاد الاجتماعية للمقاومة العراقية: احتمالات البقاء والاستمرار

14-8-2004

المقاومة العراقية على المحك، فهي إما أن تصنع خطاباً سياسياً متقدماً وعملاً عسكرياً بارعاً يخدم هذا الخطاب، وتحافظ على وجودها ودورها الهام في ظل الفوضى المشبوهة التي تسود المنطقة، وإما أن تنزع لصم الآذان وتضيق الأفق، عندها تخسر عمقها وذاتها بالتبعية

بقلم عمر عياصرة

تمر المقاومة العراقية بمجموعة من المحددات الموضوعية التي يمكن اعتبارها مؤشراً قوياً وفاعلاً على تطورات المشهد المستقبلي لهذه المقاومة وتحولاته، ومن هذه المحددات غياب ما يعرف بالتبني الخارجي للمقاومة العراقية
(لوجستياً أو فكرياً ثقافياً)، اقتصار المقاومة على العنصر السني، خروج الشيعة من احتمالات الانخراط في المقاومة، دخول فكر القاعدة بقوة في البنية العامة للمقاومة (قتال جماعات الردة)، التحولات السياسية الجارية في العراق، كتشكيل الحكومة العراقية وأذرعها الأمنية واحتمالات دخول قوات عربية وإسلامية للأراضي العراقية (غياب الواجهة الأمريكية وظهور إشكالية توفر العدو). .
المقاومة (بهذه السمات) قد تعاني من إشكالات كبيرة تجعل من قضية استمرار زخم المقاومة مسألة وقت، وقد تعيق هذه المحددات الموضوعية قدرة المقاومة على تقديم خطاب متقدم يستثمر فرصة الانتكاسة الحاصلة للمشروع الأمريكي في العراق.
مع كل ذلك، هناك قراءة أمريكية جادة (تملك هي أدواتها) لطبيعة وخطورة المحضن الاجتماعي الذي يوفر غطاءً أمنياً وربما ثقافياً تبريرياً للشباب المقاوم، وقد ظهرت إشارات لمحاولات أمريكية مدروسة لتفكيك هذا العمق الاجتماعي وعزله عن المقاومة، ولعل يدل على ذلك:
لشكل الذي أدارت به أمريكا حصار الفلوجة، وأعادت بعض قياديي لبعث للعمل الإداري والعسكري، وجعل رئاسة الدولة سنية، والتخلص من الجلبي ومشاريعه التي تشير لاجتثاث السنة ودورهم، وضبط الإيقاع الإعلامي بالتركيز على وجود عناصر أجنبية تدير العمل المقاوم بأجندة غير عراقية (اختزال المقاومة بالزرقاوي).
إن احتضان المناطق السنية لفكر المقاومة ورجالاتها الميدانين له ما يدافع عنه (وتحديدا عند العشائر)، فالسنة هم المتضرر الأكبر من سقوط نظام { صدام حسين }، حيث الخسارة الكبرى للامتيازات الإدارية والسياسية والاقتصادية والهيبة والمكان، كذلك هم الأقل استفادة من احتمالات المشروع الأمريكي في العراق، فمشروع المركب الفيدرالي الأمريكي للعراق وما ينبني عليه من تقسيم الثروة والسلطة سيجعل السنة الأكثر بعداً عن هذه الامتيازات، وهناك بعداً آخر يبرر هذا التدافع السني نحو المقاومة المسلحة وهو حالة التلاحم بين الثقافة الفرعية لعشائر السنة مع أدبيات القوى الإسلامية والمتطوعين العرب، مما قاد لتحالف مرحلي قد تختلف غاياته وأهدافه على المدى البعيد، لكنه شكل حالة من الاتفاق على ضرورة تفعيل مفهوم الجهاد وطرد المحتل وغض الطرف عن المشاركة السياسية المشبوهة في هذه المرحلة.
العمق الاجتماعي للمقاومة المسلحة العراقية يحتاج لمبررات قوية حتى يستمر في توفير هذا الدعم الأمني والثقافي لهذه المقاومة المكلفة، وهنا يبرز دور المقاومة في تطوير الأداء والأدوات حتى تتمكن من الحفاظ على هذا التحالف الضروري بينها وبين عمقها الاجتماعي، فبزوال هذا التحالف تتلاشى المقاومة وتضمر، وينجح المشروع الأمريكي بامتياز وخنوع من

الجميع.
وهناك جملة من الإجراءات المقترحة والضرورية التي يجب على رجالات المقاومة سلوكها حتى وإن كانت تتنافى وجدانياً مع لحظات الشهادة ودوي الرصاص ورائحة البارود والدم، لكن هذا المجتمع السني هو العصب الرئيس لهذه المقاومة فلا بد من إجراءات نوجزها بما يلي:
أولاً: مواكبة المشروع السياسي للعمل المسلح:
فالمجتمع السني يريد ثماراً (آنية كانت أو محتملة)، وهو وإن كان يؤمن بالتحرير والاستقلال، لكنه اعتاد الامتيازات، فلا بد من مشروع استراتيجي، في بعض محطاته نقاط مرحلية يطمئن لها العمق الاجتماعي وتعطيه الأمل والدافعية للاستمرار.
ثانياً:- حصر الجبهة القتالية بالاحتلال:
إن توسيع رقعة المعركة، وقتل عراقيين يؤدي بالضرورة لتشويه صورة المقاومة لاسيما مع قدرة الأمريكان على استثمار هذه الناحية والدفع بالمحضن الاجتماعي لرفضها أخلاقياً ووطنياً، فلا بد للمقاومة أن تحصر العمل العسكري بالاحتلال لاسيما إذا تلاقى ذلك مع المشروع السياسي المحتمل.
ثالثاً: عدم إعطاء المبرر للمحتل بالاعتداء على هذا العمق:
لابد من وضع خطط عسكرية تجعل من احتمال إيقاع الضرر على العمق الاجتماعي المدني معدوماً أو طفيفاً. فهذا العمق ليس على درجة عالية من التعبئة الجهادية التي يتوقع منها قدرة احتمال وصبر كبير، فمن الحكمة أن نجنب هذا العمق المواجهة التي تجعل تحالفه مع المقاومة مثار جدل.
رابعاً: السيطرة الإعلامية والسلوكية:
حتى تتمكن المقاومة من الإبقاء على تحالفها مع العمق الاجتماعي الذي يقدم لها الحماية (مجتمع السقاية والرفادة)، لابد من صياغة علاقة محبة وود وقناعة بالمقاومة، وهنا يبرز دور الإعلام بشقيه، الإعلام بالممارسة الأخلاقية الاجتماعية (تجنب نموذج المقاومة الفلسطينية في لبنان) والإعلام بشكله التقليدي الذي يسيطر على وعي العمق الاجتماعي ويبني مفردات و ثوابت لدى هذا المجتمع تضمن استمرار العلاقة بينه وبين المقاومة.
خامساً: التماسك الوحدوي للمقاومة:
هناك سيقان وجذور مختلفة لأذرع المقاومة في العراق، والمصلحة تستدعي التوحد الميداني على أقل تقدير، والعمل على تناغم المواقف الميدانية والإعلامية، فهذا التوحد يشعر المجتمع السني بجدوى المقاومة وجداره التعاون معها.
سادساً:- التركيز على "الأجندة" العراقية، لابد للمقاومة من الدقة في التعامل مع المعطيات السياسية في بناء خطابها، وهنا تظهر أهمية إبراز الهم والأجندة العراقية، ولا يفهم من ذلك أن العراق معزول بأجندته ومستقبله عن مستقبل الأمة الإسلامية والعربية، ولكن الحكمة تستدعي رسم خطوط دقيقة حتى وإن كانت مرحلية بهدف الحفاظ على الكينونة الاجتماعية العراقية.
المقاومة العراقية على المحك، فهي إما أن تصنع خطاباً سياسياً متقدماً وعملاً عسكرياً بارعاً يخدم هذا الخطاب، وتحافظ على وجودها ودورها الهام في ظل الفوضى المشبوهة التي تسود المنطقة، وإما أن تنزع لصم الأذان وتضيق الأفق، عندها تخسر عمقها وذاتها بالتبعية..

للعودة للأعلى